ويمكن تطبيق قوله هذا على الفتوحات الاسلامية الاولى وما تلاها من اقامة أمصار جديدة وسلسلة من الثغور البرية والبحرية على طول الحدود .

وكما ربط ابن خلدون بين رقى الدول ومايطرأ على المدن من ازدهار ونمو تبعا لذلك فقد ربط أيضا بين اضطراب أحوال الدول في أواخر أيامها وما تتعرض له المدن من تدهور وخراب ، وذلك لما يحدث في مثل هذه الفترات من أحداث ترتبط بطبيعة هذه المرحلة من حياة الدول .

وقد استقى ابن خلدون شواهده على ذلك من أحداث عصره وعلى نحو ما هو مقرر فى تاريخ الدول المتعاقبة ، وتتمثل هذه العوامل والمظاهر فيما يلى : عندما يفسد النظام الاقتصادى للدولة يضطرها ذلك الى اتخاذ اجراءات اقتصادية قد تؤدى الى تدهور المدن ، ومن هذه الاجراءات مثلا ، فرض الضرائب او المكوس وزيادتها زيادة بالغة فتكسد الاسواق ويؤذن ذلك باختلال العمران ، فيؤثر على الدولة ، اذ لا يزال ذلك يتزايد الى أن تضمحل . (٣٢)

وأما ما يصاحب هذا التدهور الاقتصادى في الدولة فهو بطبيعة الحال ما تكرر حدوثه فى مصر من تعرضها للمجاعات والأوبئة ، وان تضافرت مع هذا كثرة الفتنة لاختلال نظام الدولة السياسى (٣٣) مثل قيام العربان بنهب المدن مع قلة المدافعين عنها (٣٤) . وهكذا يربط ابن خلدون بين الاقتصاد المستقر والاستقرار السياسي ، ويؤكد ارتباط التدهور الاقتصادى بالتدهور السياسى فى أواخر الدولة ، ويبرز بوضوح أثر ذلك كله على تدهور المدن وخرابها .

وعلى نحو ما فصل ابن خلدون عوامل ازدهار العواصم والامصار بالنسبة للدولة الحادثة تعرض عند ذكر تدهور المدن وخرابها لأحوال هذه المدن معللا ذلك ومبينا الاحتمالات التى تطرأ عليها بعد زوال الدول . وينطلق ابن خلدون فى ذلك من قاعدة اساسية هى أن عمر العاصمة هو عمر الدولة التى شيدتها .

ومن ثم فمع امتداد عمر الدولة تشاد المبانى وتتعدد وتتسع الاسواق وتزداد رقعة المدينة كما وقع فى بغداد حتى لم تصبح مدينة واحدة يجمعها سور ، وكما هو حال مصر والقاهرة فى أيامه . (٣٥)

اما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فتتغير الأمور تماما ، اذ تخرب العاصمة (كرسى الملك) بخراب الدولة وانقراضها على نحو ما حدث للعسكر والقطائع فى مصر . وقد ينقص العمران تدريجيا حتى تنتهي المدينة الى خراب . ويعلل ذلك بفقدان العاصمة لوظيفتها السياسية وما يتبع ذلك من خروج الكثير من سكانها أصحاب الوضائف العامة التى لا توجد

---

(٣٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٤٠ / ٨٤١ .

(٣٣) ابن خلدون : المقدمة : ص ٨٨٠ .

(٣٤) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٢٣ .

(٣٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

الا في العاصمة ، وقلة الاهتمام بها ، فضلا عماقد ينظر الى سكانها من أنهم اشياع الدولة السالفة ، بل قد تنقل الدولة الجديدة سكانالعاصمة القديمة لتضمن سيطرتها عليها .

ولم يقتصر ابن خلدون على معالجة تدهورالعواصم على النحو السابق ، بل يعطى تصورا آخر حيث تقف الظروف البشرية من وراء بقاءالعواصم على حالها ، وذلك اذا ما بقيت كرسيا للدولة الجديدة واستغنت الدولة بها عناختطاط عاصمة جديدة على نحو ما حدث للقاهرة وفاس . (٣٦)

وهناك سبب آخر يحفظ للمدينة بقاءهاوعدم تدهورها وهو أن تكون قد أقيمت حيث وضعها الطبيعى (ما اشترطه من قبل عنداختطاط المدن) ومن ثم يكون للمدينة ظهير بشرى في ضواحيها وما قاربها فى الجبالوالبسائط من بادية تمدها بالسكان ، فيكون ذلك حافظا لوجودها وبقائها كما هو الحالبفاس وجاية من المغرب . والسبب فى ذلك هو ما يقرره ابن خلدون من تحول سكان الريفوالبادية الى سكنى المدن (ظاهرة الخروج الريفى) . واما اذا لم يتوفر للمدن (الامصار)مثل هذه الظروف البشرية فان انقراض الدولة يؤدى الى تناقص العمران وتشتت السكان ومنثم خرابها ، ومثال ذلك الفسطاط والكوفة والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد . (٣٧)

ولقد لخص ابن خلدون عملية الهرم فيالمدن بانتقاص عمرانها وقلة ساكنيها ـ أى أنه عالج السكن والسكان فى المدن ورتب على ذلكمظاهر منها :

١ ـ انتقاص الصناعات : ذلك أن الصنائعانما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبوها ، فاذا ضعفت احوال المدن واخذت فى الهرم يتناقصفيها الترف ، ويرجع سكانها الى الاقتصار على الضرورى ، فتقل الصنائع التى كانت من توابعالترف (السلع الترفيهية او الكمالية) ومن ثم يهاجر أصحاب هذه الحرف الى غيرها من المدن،وهكذا تظل الصناعات فى التناقص ما زالت المدينة فى التناقص الى أن تضمحل . (٣٨)

٢ ـ أن تراجع عمران المدن لا يظهر فىتقلص مساحتها ، وتناقص سكانها فقط بل يظهر في **تغير نمط المبانى ومادة بنائها** ، ذلك انالمدن العامرة تكثر فيها المبانى المشيدة بالحجر والجير والمنمقة بشتى أساليب التنمق ، فاذاتراجع عمرانها وخف ساكنها وقلت الصنائع كان من جملة ذلك عدم الاجادة فى البناء واستخدامالطوب بدلا من الحجارة ، والقصور عن التنميق فيعود بناء المدينة مثل بناء القرية والمدن وتظهرعليها سيماء البداوة ، وفوق هذا فان مع قلة

---

(٣٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦٧ .

(٣٧) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ / ٩٦٧ .

(٣٨) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٦٢ / ١٠٦٣ .

السكان وهجر المساكن وعدم القدرة على جلب مواد البناء الجديدة يدفع سكان المدن المتدهورة الى استخدام احجار البناء القديمة ونقلها من الدور القديمة الى الحادثة . (٣٩)

ومثل هذه الدورة في المبانى قد رأتها الفسطاط والقاهرة فى مراحل من تدهور الأولى وخراب ظواهر الثانية مع المجاعات والأوبئة على نحو ما فصل المقريزى (٤٠) ولعله تأثر بأفكار ابن خلدون ، فهو استاذه حين خلص الى مثل هذه النتائج وطبقها على المدينتين .

ثالثا : تصنيف المدن عند ابن خلدون :

لم يكن ابن خلدون اول جغرافى راعى تصنيف المدن ، فقد سبقة آخرون منهم المقدسي الذى صنف المدن على أساس الوظيفة الادارية والسياسية ، وميز بذلك بين ثلاثة أنواع من المدن هى :

١ ـ **الامصار :** وقصد بها العواصم ، وهى المدن التى يحلها السلطان ويجتمع فيها الدواوين (الوزارات) وتقلد منها الاعمال (الوظائف العامة) وتضاف اليها مدن الاقاليم ، مثل الفسطاط فى مصر فى عصره ، وشبهها بالملوك .

٢ ـ **القصبات :** عواصم الاقاليم ... وشبهها بالحجاب .

٣ ـ **المدن أو المدائن :** وهى ما يلى القصبة في الاقليم من مدن أخرى غير عاصمتها وشبهها بالجند . (٤١)

وهكذا نجد أن المقدسي قد حدد بذلك نوعا واحدا من المدن وهى ذات الوظيفة الادارية ، وان أخذ فى اعتباره ـ ضمنا ـ اتساع رقعة المدينة وحجمها .

أما ابن خلدون فقد راعى اتساع كتلة المدينة ، وقصد بذلك مدى اتساع العمران بالمدينة واكتمال مرافق المدن بها ، وتنوع هذه المرافق واحتواء المدينة على الكثير من مظاهر التحضر والترف ممثلة فى تعدد الصناعات بها . وعلى هذا الاساس صنف المدن فمنها :

* المدن الامصار المستبحرة فى العمارة .
* والمدن المتوسطة .

---

(٣٩) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٩٢ / ٩٩٣ .

(٤٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٨ / ١٣٢ .

(٤١) المقدسي : ص ٤٧ ، محمد محمود الصياد ،الفكر الجغرافى العربى وتطوره ص ١٢٧ مجلة الثقافة العربية ١٩٧٥ .

فأما المدن المستبحرة فى العمارة فانها بحكم اتساعها الكبير تختص بكل الصنائع ، بل تتداعى الصنائع فيها سواء الصنائع الضرورية او الكمالية الترفيهية ، وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة تستحدث الصنائع وهذا من خصائص الأمصار ، وقد حدد من المظاهر المميزة للمدن المستبحرة الحمامات (٤٢) لانها انما توجد فى الامصار دون المدن المتوسطة ، كما حدد أيضا ان الصنائع في الامصار كاملة ومتعددة ، اما فى المدن المتوسطة فناقصة ومقتصرة على البسيط الضرورى .(٤٣)

• • •

التركيب الداخلى للمدينة العربية

أ ـ الخطة : (تخطيط المدينة)

يعد تخطيط المدن العربية من أهم الظواهر الحضارية والفنية عند العرب التى بدأت مع الفتح العربى بتمصير الامصار ، فصارت هذه المدن الحادثة في الاسلام من مظاهر الحضارة العربية . وعلى الرغم من أن هذه المراكز الحضرية كانت لها صفاتها الحربية عند تخطيطها الأول الا أنها قد اشتملت على سمات حضارية تعكس تخطيط المدن عند العرب ، من ذلك تمصير البصرة على عهد عمر بن الخطاب ، فقد جعلت خططا (٤٤) القبائل وجعل عرض شارعها الاعظم وهو مربدها ستين ذراعا (٣٢ مترا تقريبا) وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا ، وعرض كل زقائق سبعة أذرع ، ثم جعلوا فى وسط كل خطة رحبة (٤٥) فسيحة لمرابط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا فى المنازل . (٤٦)

أما الكوفة فقد خططت شوارعها بحيث كان عرضها عشرين ذراعا ، وطولها اربعين ذراعا ، والازقة عرضها تسعة أذرع ، والقطائع ستون ذراعا ، وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وهذا يدل على نفاذ سوق التخطيط في البناء حتى فى هذا الزمن الاول (٤٧) للحضارة العربية .

---

(٤٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠١٨ / ١٠١٩ .

(٤٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٠٥٧ / ١٠٥٨ .

(٤٤) الخطة : المكان المختط للعمارة والارض يختطها الرجل لم تكن لأحد من قبله والجمع خطط وعندما بنى العرب مدينة الفسطاط جعلوها أخطاطا اما قاهرة المعز فكانت حارات والحارة هى كل محلة دنت منازلها والمحلة منزل القوم فالحارة كالخط جزء من مجموع مابنى المدينة يتخللها الطرق ويوجد بها المرافق العامة ... أنظر تعليقات محمد رمزى على النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٢ .

(٤٥) الرحبة : الاصل فى الرحبة الفضاء ، وقل أن تكون مدينة ليس فيها محلة يقال لها الرحبة .. انظر ياقوت : المشترك ص ٢٠٣ .

(٤٦) ابن حبيب البغدادى : الاحكام السلطانية ص ١٧١ .

(٤٧) الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية جـ ١ ص ٢٨٢ / ٢٨٣ دار احياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان .

٤١٠ 14

واذا كان المبدأ القبلى قد روعى فى تنظيم الجيش العربى زمن الفتوح الاولى فان ذلك الأمر قد أخذ به فى تخطيط المدن التى بناها العرب كذلك ولنفس الحكمة وهى مراعاة الانسجام والتكاتف ومنعا للتفاخر أو التنافس ووقوع المصادمات فى مثل هذه الظروف الحربية. ولهذا فقد خصصت الاحياء لسكنى القبائل ، ومن ثم كانت الاحياء تحمل أسماء القبائل ، والشوارع تحمل اسماء البطون التى تسكن فيها ... وهكذا يعطينا تخطيط مدينة **الكوفة** صورة عن أنساب العرب . ولم يكن الأمر فى البصرة مختلفا عن هذا (٤٨) كما قد طبق المبدأ القبلى عند تخطيط مدينة الفسطاط وصارت ضواحى الفسطاط على هذا الأمر ، كما حدث فى مدينة القطائع وأخيرا في قاهرة المعز ، كما تدل على ذلك أسماء الحارات التى تعكس طوائف الجند العرقية التى شاركت فى الفتح الفاطمى لمصر .

ب ـ مواضع المدن :

المقصود بذلك الموقع المحلى الذى تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه المدينة على نحو ما حدد ابن خلدون ، وهو أمر وقع به الاهتمام عند العرب وفقا لاغراض الاستقرار المدنى ، ولكن هناك مواصفات عامة ذكرت فى مواضع المدن من ذلك ماقاله ابن قتيبة عند ذكر الأمصار.

قالت الحكماء : المدائن لا تبنى الا على ثلاثة أشياء ، على الماء والكلأ والمحتطب . (٤٩) وفى موضع آخر ، وقالت الحكماء من الروم ، اصلح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس وثيق ليكون مطلا (٥٠) . ويقول ابن الفقيه فى هذا المعنى وأصح البلاد ما كان على الجبال والاماكن التى تواجه مهب الصبا (الشمال) ، وما كان في قعور وأغوار ومواجهة لريح الجنوب أو الدبور فهى مواضع ردية مولدة للامراض (٥١) وأولى المواضع ببناء المدن والدور المشرف من الارض ليشرف على ما حولها . (٥٢)

ولما كانت ارض مصر مستوية منخفضة ، يهددها الفيضان كل عام فلا بد من كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى أعلى فيضان وتثبت امام الماء الجارف وقت اندفاع المياه ، وكثيرا ما تبطن جنبات هذه الكومات بالاحجار الجيرية البيضاء يجلبها القوم من حافة الهضبة اذا كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الاشجار وجدائل من الاحراش والاعشاب ان كانت الكومة

---

(٤٨) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ص ٢٢٩ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، وقد اعتمد على يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة هامش ص ١٥٤ ، الترجمة العربية . القاهرة ١٩٥٨ .

(٤٩) ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت ٢٧٦ هـ) عيون الاخبار المجلد الاول ص ٢١٣ . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥م

(٥٠) ابن قتيبة : المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٥١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٥٣ .

(٥٢) ابن الفقيه : المرجع السابق ص ١٥٥ .

بعيدة عن الهضبة ومعرضة فى بعض جنباتهالتيارجارف ، وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجرفها الماء (٥٣) خصوصا وان لماء الفيضان فى ذلكالوقت امواجا عالية نسبيا تصطدم بالكومات مما يؤثر على تماسكها .

هذا اذا كانت مراكز الاستقرار البشرىقائمة فى وسط المحيط الزراعى وهو النمط السائد فى معظم القرى المصرية ومدنها الداخلية ،اما اذا كانت تلك المراكز قائمة على ضفة النهر أو خلجانه مباشرة فان مثل هذه المواضع ، وانكانت تستفيد من جسور النهر العالية أو ضفافه المرتفعة ، الا أن ذلك لايمنع من تعرض هذهالمدن لأخطار الفيضانات العالية ، ومن ثم نجد تدابير أخرى تتخذ لحماية المدن ، من ذلك بناءالجسور الترابية المدعمة بالاخشاب وأغصان الاشجار ، واحيانا تقام الجدران الحجرية حتىلا تتآكل حافة النهر المقام عليها المدينة ، اما اذا كان عامل النحر يؤثر فى خط ساحل النهرالذى تقوم عليه المدينة فان استحداث الرؤوس الحجرية على ضفة النهر عند المدينة يؤدى الىدفع التيار بعيدا عن المدينة نحو الضفة الاخرى.

جـ ـ أسوار المدن :

عرفت المدينة الأوروبية الاسوار فيالعصورالوسطى ، وكان ذلك كشفا جديدا تدعو اليه الحاجة وحدها حيال الغارات المفاجئة من أهلالشمال المتبربرين . وكانت الاسوار الواقية بقيامها بالحراسة المستديمة أكثر نفعا من أىقدر من الشجاعة العسكرية . وقد أقيمت تلك الاسوار من الاحجار وحفر حولها خندق .

وخلال القرن العاشر الميلادى نرى ان بناءالحصون والاسوار حول مراكز الاستقرار أحد وجوه النشاط الرئيسية لجيش الملك ، ويعتبرذلك اعادة لبناء الاسوار الرومانية القديمة .

وهكذا نرى ان الحاجة الى الحماية قداحتلت مكان الصدارة بين مشاغل سكان المدن ، وصار القيام بترميم الاسوار حولها ، من بينالمؤهلات اللازمةلحصولهاعلىحقوق البلديات(٥٤) والخلاصة ، ان المدينة فى العصور الوسطى هىالمدينة ذات الاسوار . (٥٥) وكان السور من أبرز سمات تخطيط المدن فى العصور الوسطى ،وقد تضافر مع الخندق الخارجى أو القناة او النهر فى جعل المدينة كجزيرة . (٥٦)

واذا كان ما سبق يصدق على المدينة فىأوروبا العصور الوسطى ، فان المدن المصرية فى مجموعها ـ في نفس العصر ـ لم تعرف هذهالسمة من سمات المدن بوجه عام ، وان كانت

---

(٥٣) سليمان حزين : القرية والاصلاح الريفى فىمصر ص ٢٥٨ / ٢٥٩ .

(٥٤) ممفورد : المدينة على مصر العصور ص ٤٥٢ / ٤٥٥ .

(٥٥)ممفورد : المرجع السابق ص ٤٦٧ .

(٥٦) ممفورد : المرجع السابق ص ٥٥٥ / ٥٥٦ .

قد عرفت الاسوار فى بعض المدن لأسباب وظروف خاصة ولفترات محددة ارتبطت بتلك الظروف من ذلك :

١ ــ مدن الثغور والرباطات وهذا أمر يتمشى مع وظيفتها الحربية .

٢ ــ المدن المعرضة لغارات الأعراب وخاصة اذا كانت هامشية مثل **دمنهور** .

٣ ــ المدن الواقعة على طرق الغزو الخارجى مثل **بلبيس** وذلك لدورها الحربى .

وهناك مدن أخرى بصعيد مصر ذكر ابن جبير ــ فى رحلته ــ ان لها أسوارا مثل اسيوط ودشنا وقوص .

د ــ توابع المدينة فى ظواهرها :

الارباض جمع ربض ، والربض (٥٧) ماحول المدينة ، (أى ما هو خارج عن كتلتها السكنية الرئيسية أو خارج اسوارها اذا كانت مسورة) وقيل هو الفضاء حول المدينة . وقيل هى الابنية (المساكن) التى تكون حول المدن وتحت القلاع ... وهذا المعنى الاخير هو المقصود هنا أى ضواحى المدينة أو ظاهرها او توابعها المتصلة بها عمرانيا . ومن الواضح ان الارباض من خصائص او سمات المدن الكبرى خاصة مثل عواصم الدول .

وقد اهتم ياقوت الحموى بالارباض وعددها ويمكن ان نعطى أمثلة للارباض مما ذكرها وذلك ليتضح المدلول الجغرافى للضواحى عند الجغرافيين العرب حيث قصدوا بها ما اتصل بكتلة السكن الرئيسية ، وليست الضواحى المنفصلة التى لا تتصل مباشرة بالمدن ، وانهم قد ميزوا بين صور متعددة من الاستقرار القريب من المدن .

يذكر ياقوت ربض قرطبة بالاندلس متصلة بها بظاهرها ، **وارباض القاهرة** فى عصره ما اتصل بها من عمران خارج اسوارها ، ومن ثم حين يذكر « **أم دنين** » يقول : هى قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة . اما **مدينة قوص** (التى كانت تعيش عمرها الذهبى) فلها ربضها ممثلا فى **منية قوص** فهى ربض المدينة وهو كبير واسع فيه منازل التجار وأرباب الاموال :

---

(٥٧) لمزيد من التفاصيل عن اللفظ يحسن الرجوع الى قواميس اللغة وخاصة :

ابن منظور : لسان العرب

الزبيدى : تاج العروس ج ٥ ص ٢٩

الربعى : كتاب نظام الغريب ص ٨٣ . الطبعة الاولى ، القاهرة .

العسكرى : التلخيص ج ١ ص ٢٦٢

فالربض سور المدينة ومأوى الغنم ووسط الشيء ، والربض أو الربض أساس البنيان أو البناء وقال بعضهم أساس المدينة ، والربض (بالتحريك) تواحى الشيء أى احياء المدينة ومن ثم نجد ياقوتا يذكر أن الارباض كثيرة وقل ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الربض وعدد أرباض بغداد أو محلاتها . ويذكر العسكرى ان اللفظ يقال له بالفارسية براسته .

ومن المــدن الاخرى الكبــيرة التى عرفت الارباض فى مصر نجد مدينة تنيس . هذا وقصر لفظ الربض على احياء المدينة الخارجية المتصلة بالمدينة الأم واضح عند الجغرافيين العرب ، بل قد ذكره الفقهاء الأحناف عند تحديدهم لتوابع المصر (المدينة) فجعلوا كل قرية متصلة بربض المصر من توابع المصر فان لم تكن متصلة بالربض فليست من توابعه أى كما قالوا « ماكان خارجا عن عمران المصر فليس من توابعه ، وان كانوا قد قدروا أحيانا مسافة عدة أميال أو فراسـخ لهذا التحديد . (٥٨)

ويرى حسين مؤنــس ان الارض كضواح للمدن يقصد بها ما اتصل بعمارة المدينة وكانت صغيرة ، فاذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر (٥٩) وســوف نعرض لمـدلول الحاضر والضاحية، ثم نقارن ذلك بما كان سائدا فى أوروبا العصور الوسطى .

الحواضر : فى قواميس اللغة الحاضر المقيم فى المدن والقرى بخلاف البادى المقيم بالبادية ، ويقال للمناهل المحاضر للاجتماع والحضور عليها والحاضرون : كل من نزل على ماء عد ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفا فهو حاضر سواء نزلوا فى القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الاخبية على المياه فقروا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ .

قال الخطابى وربما جعلوا **الحاضر** اســما للمكان المحضور ، ويقال نزلنا حاضر بنى فلان ، **والحاضرة** بقنسرين وهو موضع الاقامة على الماء من قنسرين ، **والحاضر محلة عظيمة بظاهر حلب وهذا المعنى هو المقصود هنا** ، ومن ثم نجد ياقوت الحموى في معجمه يذكر **حاضر قنسرين** فيقــول قرية جامعة كالمدينة تقابل قنسرين ، **والحــاضر السلمانى : حاضر مدينة حلب بظاهرها** ، ويعرف قديما بحاضر السليمانية وهو ربضها محلة عظيمة كالمدينة . ولهذا الحاضر توابعه ، فالظاهرية محلة بظاهر حلب متصلة بالحاضر السلمانى كان أول من عمرها الملك الظاهر غازى بن صــلاح الدين قرابة سنة ٦٠٠ هـ .

اما زويلة افريقيــة فهى مــدينة كالربض للمهدية بمنزلة الحاضر لمدينة حلب جعلها عبيدالله المتســمى بالمهدى جــد ملوك مصر المتعــلوية (الفاطميين) مسكنا للرعية بأهاليهم وسكن هــو وجنده **المهدية** ، فكانت الرعية تبيت بزويلة عند أهاليهم ويبكرون الى دكاكينهم ومعايشهم بالمهدية . وزعم المهدى انه فعل بهم ليأمن غايلتهم ، قــال أحول بينهم وبين اموالهم ليلا وبينهم وبين حرمهم نهارا . (٦٠)

واضح ان الحاضر والربض يشتركان فى أنهما من ظواهر المدن وتوابعها ، وليس هنــاك ما يدل على الفرق بينهما من حيث الاتصال أو الانفصال عن كتلة المدينة الأم أو اختلاف الحجم والمساحة بدليل ان ياقوت وصف الحاضر (حاضر حلب) انه ربضها ، وان كان واضحا ان الحــاضر

---

(٥٨) **الزبيدى : تاج العروس ج ٣ ص ١٤٨ .**

(٥٩) **حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٨٩ .**

(٦٠) **ياقوت : المشترك ص ١١٨ ، ٢٣٦ .**

١٨ ٤٢

كبير كالمدينة وله توابعه (الظاهرية) ولكن نلاحظان مثل هذه الحواضر أو المدن السكنية قد ارتبطت بالمدن الحربية الحادثة التى تقيمهاالدولالغازية عند سيطرتها على البلاد المفتوحة ، اذ يصبح الجيش القادم فى حاجة الى مدينتهالحربيةالتى يقتصر سكناها على السلطان وجنده ، ومن ثم يصبح للسكان المدنيين محلة خاصة بهم خارج أسوار المدينة الحربية ، ولكن هذه المحلة ليست بعيدة عن المدينة ، فهى فى ظاهرها أوحول أسوارها على نحو ما ساقه ياقوت عن **المهدية** وزويلة . وكمثال آخر **قاهرة العز** التىظلت حصنا للفاطميين ومدينة خاصة بالسلطان وجنده وليست مسكنا للعامة ، ولم تفتح كمدينةعامة الا زمن صلاح الدين الايوبى حين أباحها لسكنى العامة ، ثم اتخذت **قلعة الجبل** كرسيالملك ، وقامت الارباض فى ظواهر القاهرة الى أن تكون منها ومن الفسطاط مجمع مدنى كبيرداخل الاسوار المحيطة بهما .

وكمثال آخر من بلاد المشرق مدينة بخارىفقد كان لها قلعتها ومدينتها المسورة ثم ربضها (وله ابراجه التى تحميه وقد جعلوا له البوابات سنة ٢٣٥ هـ) السور أيضا وقد وصف الدمشقى بخارى كمدينة يحيط بها قصور وبساتين وقرىومساحتها ١٢ فرسخا ، ويحيط بذلك كله سور واحد ، ولها ربض يشقه نهر الصغد . (٦١)

الضواحى : ضحا الشىء يضحو فهو ضاحأى برز ، والضاحى من كل شىء البارز والظاهر، والذى لايستره منك حائط ولا غيره . وضواحىكل شىء نواحيه البارزة للشمس والضاحية الناحية البارزة ، ويقال للبادية الضاحية ،**وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة وجمع الضاحية ضواح** . ومنه قريش الضواحى اى النازلونبظواهر مكة (بادية) وقريش البطاح (الاباطح) لانه حاضر قطان الحرم **فالضاحية ما تنحى عنالمساكن وكان بارزا** . (٦٢)

وقد عرض **القلقشندى** (٦٣) عند ذكرضواحى القاهرة لمداول اللفظ لغة واصطلاحافقال الضاحية فى أصل اللغة البارزة للشمس وكأنهاسميت بذلك لبروز قراها للشمس بخلاف المدينة لغلبة السكن بها ، وقد اطلقت كلمةالضواحى على ماجاور القاهرة من جهة الشمال من القرى . وكانت ولايتها مضافة الى ولايةالقاهرة وداخلة في حكمها .

هذا وقد أحصى **ابن الجيعان** (٦٤) ضواحىالقاهرة فى عشرين ناحية وذلك بخلاف قرى الحبس الشرقي أو نواحيه (ست نواح) وهىفى مجموعها تمثل القرى الواقعة الى الشمال من القاهرة والى الشمال الشرقى على نحو ماهومحدد فى خريطة الضواحى .

ومعنى **هذا ان الضواحى تختلف عنالارباضوالحواضر السابقة وفقا لمفهوم العصر الوسيط عند الجغرافيين العرب ، واما مفهوم الضاحيةالحديث فقد بدأ فى أوروبا العصور الوسطى على**

---

(٦١) الدمشقى : نخبة الدهر في عجائب البر والبحرص ٢٢٣ .

(٦٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١٦ ص ٢٠١ .

(٦٣) القلقشندى : صبح الاعشي ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٦٤) ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٨١٥ .

نحو ما عرض ممفورد . فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى كانت هناك حول فلورنسا بايطاليا الضواحى المقصورة الى حد كبير على الطبقة العليا، وقد تمثلت الضواحى فى العهد الاخير من العصور الوسطى كاكواخ ومنازل صغيرة وفيلات مع حدائق فسيحة خارج اسوار المدينة ، وكانت تستخدم للتتريض فى الصيف كأماكن للهواء الطلق وسط المبانى القليله والحدائق ، ثم نشأت ضواحى لندن بعد ذلك بعدة قرون . (٦٥)

هـ ـ شوارع المدن :

كان للمدينة شارعها الاعظم الذى يتسع أضعاف شوارعها الاخرى، ثم تأتي بعد ذلك السكة (أوسع من الزقاق سميت بذلك لاصطفاف الدور فيها) ثم الزقاق .

ويجب أن لا ننظر الى اتساع هذه الشوارع فى ضوء اتساع الشوارع فى العصر الحاضر ، وانما فى ضوء ظروف العصور الوسطى ومهمة الشارع فى ذلك الوقت .

فقد كانت الشوارع تستخدم للسير على الاقدام ولم تكن تستخدم من قبل الباعة المتجولين، فالتجارة لها أحياء خاصة بها ، كما أن وسائل الحمل والنقل لم تكن الا الدواب . وهذه الصفة ـ ضيق الشوارع فى العصور الوسطى عن العصر الحاضر ـ كانت مشتركة بين المدينة العربية والأوروبية (٦٦) على السواء ، وان اختلفت العلة في ذلك . ففى حين كان ساكن المدينة الاوروبية ينشد الوقاية من ريح الشتاء فقد مكنه ضيق الشوارع وتعرجها من غرضه هذا وقلل من مساحة الاوحال، ومن ثم وفرت له هذه المواصفات المزيد من أسباب الراحة أثناء مزاولة نشاطه اليومى . وحتى شوارع جنوب اوروبا ـ حيث الدفء ـ كانت ضيقة والمنازل ذات اجزاء عريضة بارزة تقى السائر على قدميه من المطر ومن وهج الشمس على السواء . (٦٧)

اما المدينة العربية فان ضيق شوارعها انماجاء استجابة للمناخ الحار وشدة وهج الشمس واشعتها فى فصل الصيف خاصة . ومن ثم فقدكان ضيق الشوارع سببا فى زيادة مساحة الظل فى الطرق ، وفوق ذلك فان شوارع الحى التجارى أو السوق كانت لها سقائفها لحماية المترددين على المحلات التجارية من الشمس والمطر معا .

وفوق ما سبق فان الشوارع فى المدينة العربية لم تكن مصدر الضوء والهواء بالنسبة للمنازل على نحو ما هو متبع فى العصر الحاضر ، وانما الاعتماد الكلى في التهوية والضوء للمسكن العربى انما يأتى من داخله حيث الصحن والحديقة وبهذا فان الغرف المطلة على الصحن تستقبل الهواء النقى وتتجنب هواء الطريق بما فيه من اتربة تجعله غير صحى . وعلى الرغم من اتساع الشوارع فى العصر الحاضر الا أن الهواء فيها ملوث بما ينتشر فيها من أتربة وابخرة وغازات وفضلات تلوث بيئة الشارع .

---

(٦٥) عن الضواحى فى العصور القديمة والوسطى انظر ممفورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٦) ممفورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٧) ممفورد : المرجع السابق ص ٥٦٥ .

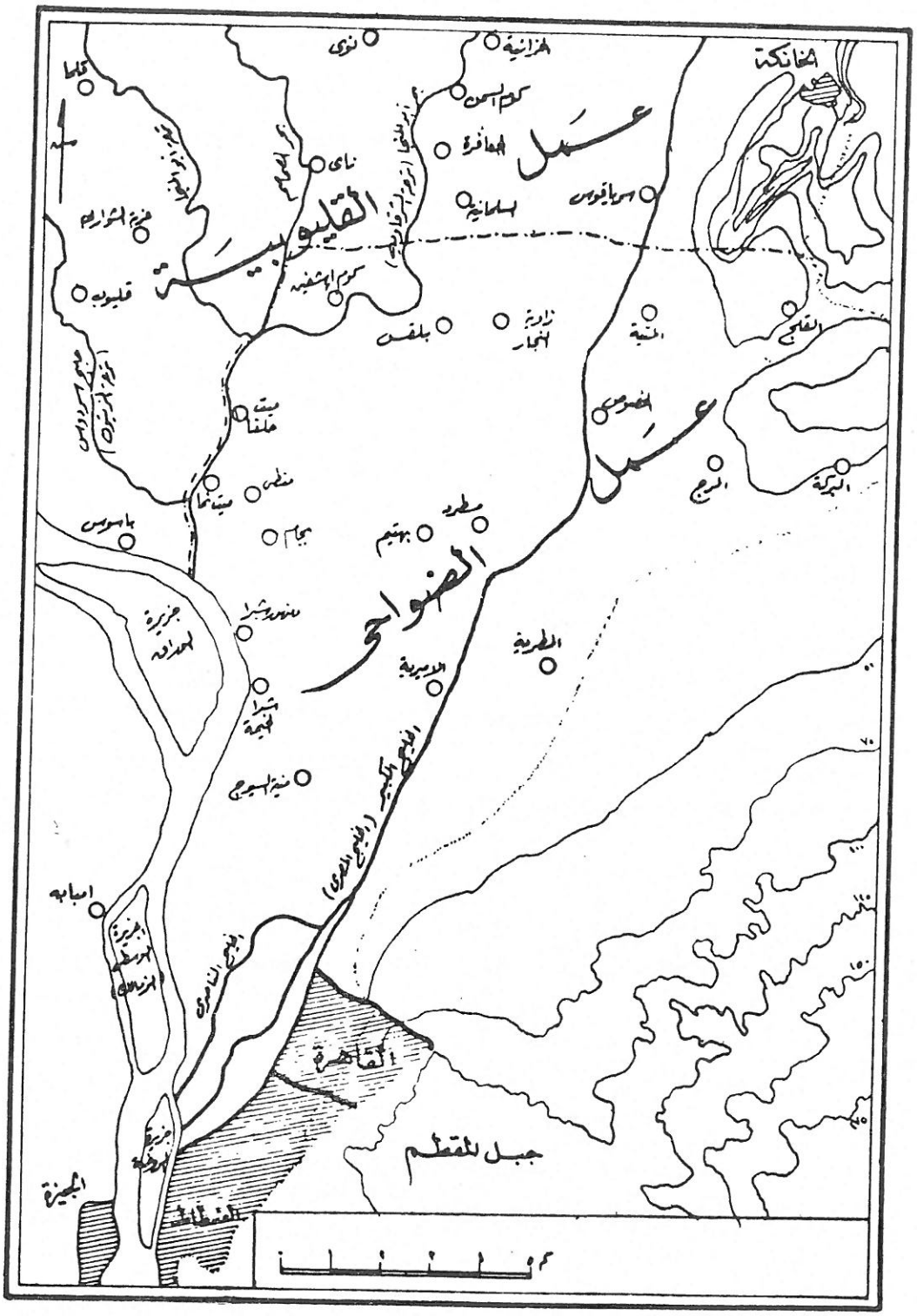

عمل الضواحي "عصر المماليك"

وقد خضعت شوارع المدن لاشراف المحتسب فكان يتطلع الى تصحيح مقدارها وترتيب كل الطرق بقسطاسها ومعيارها ويؤدب من يعتمد الخيانة فيها (٦٨) وذلك حرصا منه على قيامها بوظائفها ، وضمانا لنظافتها وحراستها ليلا .

اما من حيث المحافظة عليها فقد منع المحتسب البناء فى الطريق مهما اتسع الطريق ـ ولو كان المبنى مسجدا ـ لأن مرافق الطرق للسلوك لا للابنية ، ومن ثم تهدم مثل هذه المبانى (٦٩) وكذلك يمنع غرس الاشجار او اخراج اجنحة المبانى فى الطريق أو اقامة المصاطب التى تضر بالمارة وتضيق على العامة . (٧٠) بل لم يكن يسمح بوضع الامتعة ومواد البناء التى تنقل بعد فترة قصيرة الا اذا لم يكن فى ذلك ضرر على المارة .

اما عن الباعة فلم يكن يسمح لهم بالبيع والشراء على الطريق ، وكان الورعون لايشترون شيئا ممن قعد على الطريق للبيع (٧١) ومثل هؤلاء يمنعون من جلوسهم فى الطريق ويمنع الشراء منه لأنه غاصب لمواضع مرور الناس وقضاء حوائجهم أن كان الطريق ضيقا واو لم يضيق بذلك عليهم ـ لوسع الطريق ـ فيكره لانه يؤدى الى تضييقها بكثرة الجلوس فيها ؛ ولأن في الشراء منه اعانة له على ما يتعاطاه مما هو ممنوع فى الشرع الشريف . (٧٢)

ولم يكن يسمح بالتجول فى الشوارع والسكك والأزقة الا للباعة الذين تتعلق تجارتهم بما يلزم سيدات البيوت ، فمثل هؤلاء يسمح لهم بالطواف على البيوت ودخول الأزقة وسلوك المواضع البعيدة من السوق على أن يمر فى حاجته كما يمر غيره . (٧٣)

أما فيما يختص **بالمحافظة على نظافتها** : فقد كان المحتسب يمنع من طرح الكناسة فيها أو رش الماء اذا خشى من التزلق والسقوط ، كما يمنع كل ما فيه أذية واضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان فى زمن الشتاء . ومجارى الأوساخ الخارجة من الدور فى زمن الصيف الى وسط الطريق ، فيأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها مسيلا محفورا في الحائط مكلسا يجرى فيه ماء السطح ، وكل من كان فى داره مخرج للوسخ الى الطريق فانه يكلفه سده فى الصيف ويحفر له فى الدار حفرة يتجمع فيها (٧٤) . أما طين المطر فقد كانت ازالته من اختصاص أولى الامر ولا يكلف الناس بذلك لأنه ليس من صنعهم ، وكذلك كان يمنع القصابين من الذبح على أبواب دكاكينهم لانهم بذلك يلوثون الطريق ويضيقون على الناس . (٧٥)

---

(٦٨) ابو سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبى الوزير (ت ٦٥٢ هـ) : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٧٦ ، المطبعة الوهبية ـ القاهرة ١٢٨٣ هـ .

(٦٩) ابن حبيب البغدادى : الاحكام السلطانية ص٢٤٤ .

(٧٠) النصيبى : مرجع سابق ص ١٧٧ .

(٧١) أحمد سعيد المجيلدى : التيسير فى أحكام التسعير ص ٧٤ / ٧٥ .

(٧٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص ١٠١ ، ابن الاخوة : معالم القربة ص ٧٨ .

(٧٣) ابن الحاج : المرجع السابق جـ ٤ ص ١٠١ .

(٧٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٧ ابن الاخوة : معالم القربة ص ٧٩ .

(٧٥) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٩٩ .